قلت : « وكيف كان ذلك ؟ »

قال : « إن نظره بعيد جداً يبصر كل شيء - أي شيء - على مسافة ميل ، ولكن إذا كان الشيء قريباً منه ، صعبت عليه الرؤية الدقيقة . . وأذكر أنه قام بيني وبينه خلاف على المسافة بين رجلي الدجاجة »

فصحت به : « إيه ؟ »

فقال : « لا تصح هكذا . . إننا في مطعم . . فهل تريد أن يلتف حولنا الناس ؟ »

قلت : « معذرة . . لقد نسيت أن ههنا ناساً . . الحق أن كلامك استبد بعقلي . تفضل »

قال : « أشكرك . . نعم اختلفنا على المسافة بين رجلي الدجاجة . . هو يقول إنها خمسة سنتيات وأنا أقول إنها أقل بكثير . . وأخيراً اتفقنا على قياسها بالضبط والدقة ، فقال أبي هات الدجاجة ، فجئته بها . . تناولتها من رجليها فقال كيف تريد أن تقيس وقد ضممت رجليها . فتناولتها من عنقها ، فصارت تلعب وتحاول أن تفلت وتضرب برجليها فاستحال قياس ما بينهما ، ثم سكنت ولكن رجليها بقيتا مضمومتين فاتفقنا على تركها على الأرض ، وحاولنا أن نغريها بالسكون بقليل من الحب رميناه لها لتلقطه ، ولكنها يا أخي لا تسكن أبداً . . حركة دائمة »

قلت : « لماذا لم تنتظرا حتى تنام وحينئذ يتيسر القياس كما تشاءان ؟ »

قال : « والله فكرة »

قلت : « هل تعني أن تقول إنك لم تعرف إلى الآن أيكما المصيب وأيكما المخطىء ؟ »

قال : « بالطبع أبي هو المخطىء . . ألم أقل لك إن نظره بعيد ؟ »

قلت : « آه صحيح . . »

قال : « طبعاً »

قلت : « طبعاً »

وكانت هذه نهاية الحديث في يومنا ذاك ، فعدت إلى البيت وقيدته لئلا أنساه

ابراهيم عبد القادر المازني

في الأدب المقارن

بيئـــات الأدباء

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

أثر البيئة في الانسان ومجتمعه وعلومه وفنونه من النواميس التي اهتم العلم الحديث بكشفها وتتبع مظاهرها والرجوع إليها في شتى الدراسات . وأثر البيئة في أدب كل أمة على إطلاقه واضح مشاهد ؛ بيد أن لكل أديب بيئة خاصة داخل البيئة العامة التي تحيط به وبغيره من أدباء أمته ، ولهذه البيئة الخاصة أثر بعيد في تكييف عبقريته وتوجيه ميوله وصبغ نظرته إلى الحياة وتكوين فهمه للأدب ، ولهذه البيئة في أكثر الأحايين فضل توجيه عبقريته إلى الأدب دون غيره من الفنون والحرف الانسانية

فالوراثة لها أثر في فن الأديب ، لاشتراكها في تكوين مزاجه وميوله ، وذلك الأثر الوراثي ملحوظ في أدب شلي وبيرون من شعراء الانجليز ، بل في حياتهما إذ عاش كل منهما ساخطاً قلق المقام مضطرباً بين البلدان مساجلا المجتمع حرباً لاتهدأ ، وقد كان كلاهما منحدراً من أسرة أرستقراطية عرفت صفات الجماح والتمرد في غير واحد من أسلافها . وللوراثة أثرها الواضح في أدب ابن الرومي الذي جاء لانتمائه إلى الروم مخالفاً أدب غيره من فحول العربية ، في النظرة إلى الحياة والطبيعة ؛ وفي استقصاء المعاني وتوليدها

ولتكوين جسم الأديب ، بين الصحة والمرض والكمال والنقص والوسامة والدمامة أثره كذلك في أدبه ، فالأديب السليم الجسم يكون صافي المزاج معتدل النظرة إلى الحياة ، والآخر المعتل الصحة المنهوك بالأوصاب ، كالمعري وابن الرومي في العربية ، وبوب وسويفت وجراي في الانجليزية ، يكون ضيق العطن أو قاتم النظرة إلى الحياة أو كثير النقمة على معاصريه شديد الشغب معهم . وقد قيل قديماً إن للأدب ضريبة على محترفه يتقاضاه إياها من ذات جسمه أو ذات نفسه ، فلا تكاد ترى أديباً إلا محروباً أو شقياً أو معسراً ، ولعل فقدان الأديب لبعض

ما يتمتع به سواه من بهجة الحياة من دواعى إرهاف حسه وصرفه إلى التأمل وعطفه إلى الأدب ، ولعل المعرى لولا عماه وانحباسه عن متعات الدنيا على ذلك الوجه ، لما حفل بالتفكير فى الأرض والسماء وأصل الخلق ومصير الانسان وهلم جرا

وللتربية والنشأة المنزلية أثرهما فى تكوين الأديب ، فكثيراً ماتتجه عبقرية الناشىء إلى الأدب لأن أباه أو كافله مشتغل بالأدب ، وقد كان ذلك شائعاً بين العرب ، إذ كان الآباء يقومون بتاديب أبنائهم ، فنشأ كثير من الأدباء كالصاحب وابن العميد وابن المعتز وابن زيدون فى بيوت فضل وأدب . وقال ياقوت فى ترجمة المعرى : « وكان فى آبائه وأعمامه ، ومن تقدمه من أهله وتاخر عنه من ولد أبيه ونسله ، فضل ، وقضاة وشعراء ، أنا ذاكر منهم من حضرنى لتعلم نسبه فى العلم » . ولحظ البيئة المنزلية من الرقى أو الحطة أثره كذلك فى أخلاق الناشىء ومنازعه ، ومن ثم يتسم أدب الشريف الرضى فى العربية وتنيسون فى الانجليزية بنزعة النسامى والتدين ، لانتمائهما إلى أرومة شريفة دينية ، بينما تبدو لوثة العامية والتبذل فى أشعار بشار وأبى نواس

ولنصيب الأديب من الغنى أو الفقر أثر بعيد فى حياته وعقليته وأدبه ، فلا بد للأديب من حظ من المال يستطيع معه أن يتفرغ إلى فنه أو يتفنن فى ابتكاره ، أما إذا كان لا يكسب رزقه إلا بجهد جهيد فهيهات أن يوفى الأدب حقه . والأديب المعسر المخفق كابن الرومى لاينفك شاكيا فى شعره متحرقا ؛ ولا يشكو هذه الشكرى أديب نشأ فى بيت نعمة كابن المعتز أو نجح فى إدراك الغنى كالبحترى ، فشعر هذين أكثر امتلاء بوصف اللذات وأوقات الصفاء . وقد وجد ابن الرومى على البحترى وهجاه حسداً وغيظا ، فرد عليه البحترى رداً هادئاً وأتحفه بهدية ، فعل المطمئن إلى نفسه الراضى فى بحبوحته ، ولم يطلب الطغرائى شططاً حين قال

أريد بسطة كف استعين بها على قضاء حقوق للعلى قبلى

ولنوع الثقافة التى يتلقاها الناشىء ، والأدب الذى يقرأ ، والأستاذ الذى يأخذ عنه ، والأديب الذى يقدمه ويشغف بآثاره ، والأدب الأجنبى الذى يدرسه ، لكل ذلك أثره فى توجيه أدبه وفلسفته فى الحياة . فآراء المتزندقة التى فشت فى صدر العصر العباسى ظاهرة الأثر فى شعر بشار وحماد وأبى نواس ، والآراء الفلسفية التى ذاعت بعد ذلك ظاهرة فى أشعار الطائى والمعرى والمتنبى ؛ ولم يتأثر أدباء العربية بادب أجنبى تأثراً ذا بال ، أما أدباء الانجليزية ففضلا عن اغترافهم جميعاً من مناهل الأدب اليونانى ، كان منهم من تاثر بالأدب الايطالى كسبنسر ، وبالألمانى كشلى وسكوت وكارليل ، وبالفرنسى ككثير من كتاب القرن الثامن عشر وشعراء القرن السابع عشر ؛ وكما أثر مذهب أبى تمام الشعرى فى تلميذه البحترى وفى المتنبى وغيرهما ، كان لملتون أثر بعيد فى كثير من شعراء الانجليز منهم وردزورث وتنيسون

ولجيل الأديب ، بسياسته وأدبه وأخلاقه وأزيائه وفنونه ، أعظم أثر فى أدبه : فبعض الأدباء ينحاز إلى حزب سياسى ويخصص جانباً من كتاباته للدفاع عنه ، كما كان الكميت ودعبل وعمارة اليمنى شيعيين ينتصرون لآل البيت ؛ وكما كان بشار عقيلياً بالولاء ينتصر لمضر ويفخر بغضبتها التى تهتك حجاب الشمس ؛ وكما كان ابن الرومى علويا بالولاء أيضا . وكان أدباء الانجليزية أكثر اتصالا بشؤون المجتمع والسياسة وتأثراً بها ، فعرضوا لمشاكل عصورهم فى أشعارهم وقصصهم ، وحين ملأ دكنز قصصه بوصف أحوال الطبقات العاملة ، إنما كان متأثراً بأحوال عصره الصناعى ، وإذا امتلأ شعر المتنبى بذكر القنا والصوارم والفتكة البكر وتضريب أعناق الملوك ، فانما كان ذلك صدى عصر التناحر والقلاقل الذى عاش فيه

وتؤثر حرفة الأديب كذلك فى أدبه ، موضوعه ولغته وتشبيهاته : فالأديب الجندى كعنترة وأبى فراس لايكاد يخوض فى غير حديث النجدة والعزة والبأس وإطاحة الرؤوس عن الأجسام ؛ والأدباء الوزراء الذين عرفوا فى الدول الاسلامية تتعلق خير كتاباتهم بالسياسة والولاية والعزل وهلم جرا ؛ والشاعر المداح كالبحترى لاينفك عن ذكر أحوال الملك ومظاهر أبهته ؛ وتوماس هاردى الذى كان مهندساً معمارياً مشغوفا بفن العمارة لايزال يبدىء ويعيد فى وصف العمائر والصروح فى شعره وقصصه ، ويستخدم فى ذلك من المصطلحات العلمية مالا يكاد يفقهه إلا خبير مثله بتلك الشؤون ؛ أما الأديب المنقطع إلى الأدب فلا يكاد يخوض فى غير شؤون الأدب وسير الأدباء . وقد أورد الجاحظ هذه الحقائق مورد الفكاهة فى رسالة صناعات القواد ، إذ جعل الطبيب والخياط والخباز والمؤدب وصاحب الحمام وغيرهم ، يتحدثون فى الأدب وينظمون الشعر فيستخدم كل منهم مصطلحات حرفته فى استعاراته وتشبيهاته

وللاقليم الذى يختاره الأديب مستقرا ومقاما ، والأقاليم التى يرحل اليها فى أدوار حياته ، أثر عظيم فى موضوعاته وأسلوبه : إذ هو يشتق أسباب القول مما يحيط به فى حله وترحاله ، ولا ريب

أن الأديب الكثير الرحلة يكون أوسع أفقا وأغزر مادة وأعمق فكرة من الأديب القاعد ، إذ كان من يعيش يرى ومن يسير يرى أكثر كما يقول المثل العامى . وقد كان وردزورث يقطن مقاطعة البحيرات فى انجلترا وكان كثير التجوال بين الجبال والروابى ، لجاء لفظه مجردا عاريا عرى الصخور وتجردها ، وكثرت فيه ألفاظ الوحشة والوحدة وهلم جرا . ونشأ كيلنج فى الهند فامتلأ شعره وقصصه بوصف غياضها وأدغالها ، وحفل بالتعصب الجنسى المتطرف ؛ وتركت رحلات المتنبى بعض الآثار فى أشعاره ، من وصف الطبيعة كوصف بحيرة طبرية وشعب بوان ، إلى وصف الأحوال السياسية فى مثل قوله :

بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم

فإلى البيئة التى ينشأ فيها الأديب وتضطرب فى محيطها حياته ، مرد ما يمتاز به أدبه من اتجاه خاص وطرق موضوعات دون غيرها ، وتناول لها على نحو خاص ، وما يتصف به من سمو أو ضعة ، وورع أو استهتار ، وفكاهة أو انقباض ، وتفاؤل أو تشاؤم ، وعمق أو سطحية ، يختلف حظه من كل ذلك عن حظوظ أبناء أمته بل أبناء جيله بل أصحابه وخلطائه ؛ وبسبب عوامل البيئة تلك يختلف عنترة وعمر بن أبى ربيعة والشريف الرضى والمتنبى فى العربية فى الموضوع والنزعة واللفظ والاسلوب ، كما يختلف وردزورث وبيرون وسكوت وشلى فى الانجليزية ، حتى يستغث الثانى شعر الأول أى استغثاث ، ويحمل الثانى رأيه فى الأخير فى قوله : ذلك الملحد شلى ! وما ذاك إلا لاختلاف ما يحمل رأس كل منهم من آثار الوراثة والثقافة والعقيدة والتربية والنشأة ، على تعاصرهم وتشاركهم فى وجوه أخرى ، وعلى كونهم يعدون اليوم أبناء مدرسة واحدة .

على أن اختلاف بيئات الأدباء أشد ظهورا فى الانجليزية منه فى العربية ، لأن أدباء الانجليزية أكثر اضطرابا فى المجتمع وإدخالا له فى أدبهم وأكثر ارتحالا فى البلدان وذهابا فى آفاق الفكر وإعرابا عن أفكارهم الصميمة وآثار تجاربهم ، ولأن المجتمع الانجليزى تغير وتجدد على توالى العصور من عهد البرابث إلى الوقت الحاضر مالم يتغيره المجتمع الاسلامى ، والثقافة الانجليزية تطورت بتقدم العلوم مالم تتطوره الثقافة العربية ، فالمحافظة كانت أغلب على المجتمع والفكر العربيين ، وهى أيضا كانت سمة الأدب العربى وديدن أدباء العربية ، ومن ثم تشابهوا كثيرا فى الموضوعات والأساليب على تباعد المواطن والعصور .

٨٠٥٤

فأدباء العربية بعد قيام الدولة الاسلامية ودخول الأدب طوره الفنى الراقى ، كانوا يأخذون أنفسهم بضروب من القول يطلبون بها البراعة الفنية أو الشهرة أو الحظوة والنجاح ، كالتمدح بجليل الصفات والتفاخر بتالد المجد ومدح الأمراء ، وجروا فى ذلك على سنن مألوفة واغترفوا من مناهل مطروقة ، حتى تشابه أولهم وأخيرهم وبعيدهم وقريبهم . فاذا قرأت مئات القصائد التى نظمها مروان بن أبى حفصة وبشار وأبو تمام والبحترى وغيرهم فى مدح الخلفاء ، كى ترى أثر البيئة الخاصة للشاعر فى كل ذلك فلن تظفر بطائل ، لأنهم إنما نظموها لأغراض مادية وعلى أنماط مأثورة ، لادخل للنفس ولا لتراثها الفكرى فيها . وإذا قرأت قول أبى نواس :

ومستعبد إخوانه بتراثه لبست له كبراً أبر على الكبر
لقد زادنى تيها على الناس أننى أرانى أغناهم وإن كنت ذا فقر
فوالله لايبدى لسانى حاجة إلى أحد حتى أغيب فى القبر
فلا يطمعن فى ذاك منى سوقة ولا ملك الدنيا المحجب فى القصر

كدت تحسب قائل هذا الشعر شريفا حسيباً عفيفا ، يزهد فى غرور الدنيا ويقنع بالقليل استمساكا بالأنفة والكبرياء ، ولم تعز هذا الفخر المغرق إلى ذلك المداح السآل الذى أنفق العمر فى اجتداء عطايا الحكام ليبذرها فى انتهاب اللذات الجسدية ، وماذاك إلا أن أبا نواس اقتفى فى نظم هذا الشعر الطنان أثر أشراف الجاهلية الذين كانوا يتمدحون بالأنفة ، وأراد أن يظهر أنه لا يقصر عن شأوهم فى ذلك الباب من أبواب القول . والأدب العربى حافل بهذا الضرب من الإنشاء التقليدى الذى لا أثر فيه يذكر للشخصية المستقلة والبيئة الخاصة

هذا ، ونشأة كثير من أدباء العربية مجهولة ، وبيئتهم الأولى غامضة ، وأكثرهم لا يظهرون فى ضوء تاريخ الأدب إلا حين يصلون إلى ذرا الأمير ، وقد كان ذلك الوصول غاية أكثرهم ؛ ومن ثم نرى فى تاريخ الأدب العربى بيئتين كبيرتين تتلو إحداهما الأخرى وتشملان أكثر أعلام الأدب العربى : الأولى بيئة القتال التى كانت بيئة الجاهلية ، وكان الجلاد فيها هم الأشراف ، والتمدح بالبلاء فى الوغى هم الشعراء ، وكان الأشراف فى كثير من الأحوال هم الشعراء وهم الخطباء الفحول ، يشفعون بلاءهم فى الهيجاء ببلاغتهم فى القصيد والارتجال ؛ والبيئة الثانية بيئة البلاط التى اضطرب فى محيطها أكثر الشعراء والكتاب بعد الاسلام وقيام الدولة ، وتأثروا بها ونظموا فيها ونثروا

فبيئات أدباء العربية المادية والذهنية كانت كثيرة التشابه من

وجوه ، والبيئات الأولى التى شب فيها كثير منهم مبهمة غامضة ، وقد كان نقاد العربية قليلى العناية بأمر البيئة وأثرها فى تكوين الأديب ، إنما كانوا يعرضون لبعض التواريخ الجافة المتعلقة بمولد الأديب ووفاته ورحلته إلى بعض العواصم واتصاله ببعض الحكام ، ويستحسنون بعض ما أنشأ أو يستهجنونه ، ويفضلونه أو يفضلون عليه ما قال أديب غيره فى نفس الباب ؛ ولهم فى ذلك بعض العذر ، إذ كانت للقول كما تقدم أوضاع وأنماط معروفة ، يأخذ الأديب بها نفسه ما استطاع ، ويحاكى الاقدمين فيها ماأمكنته براعته . أما بيئته الخاصة وتراثه الذهنى والنفسى ، فيذره جانبا وقلما يدخله فى أدبه

ولا يرد ذكر البيئة وأثرها فى كتب النقد العربى إلا عرضا ، كالذى ورد من أن ابن الرومى سئل لم لا يشبه كتشبيهات ابن المعتز ، فقال لسائله : أنشدنى شيئا من قوله الذى استعجزتنى عن مثله ، فانشده بعض أشعار ابن المعتز التى يشبه فيها النجوم والزهور بالفضة والعنبر ومداهن الغالية وهلم جرا ، فصاح ابن الرومى : واغوثاه ! لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ! ذاك إنما يصف مايعون بيته ، وأنا أى شىء أصف ؟ ووضع الجاحظ رسالته سالفة الذكر على لسان أرباب المهن ، فأجرى القول فيها مجرى الدعابة والمغالاة ، وكان أولى لو عرض للأمر من ناحيته الجدية . واستعرض بديع الزمان فى بعض مقاماته عدداً من فحول الشعراء المتقدمين ، فقال إن أحدهم أشعر الناس إذا غضب ، والآخر أشعرهم إذا رهب ، والثالث إذا شرب وهلم جرا ، فلم ير إلا أن هذه جبلتهم التى فطروا عليها ، ولم يتخيل لبيئة كل منهم فى ذلك أثراً

أما فى الأدب الانجليزى ، ولاسيما فى العصر الحديث ، فدرس أثر البيئة وعواملها من وراثة وتربية وثقافة وعقيدة ، أساس كل دراسة أدبية وكل نقد وترجمة ، والوسيلة الأولى لفهم الأديب وقدر آثاره حق قدرها ، وما ذاك إلا نتيجة ارتقاء العلوم والاجتماعيات فى العصور الحديثة ، واستفادة الادب الانجليزى بمجهودات أدباء الأمم الأخرى ، كادباء الايطالية الذين ارتقوا بعلم تاريخ الادب ، وأدباء الفرنسية الذين هذبوا أصول النقد ، وقد درس الأدب الانجليزى وترجم أدباؤه على ضوء هذه القواعد والأصول ، فبلغ من الوضوح والترتيب مالم يبلغه تاريخ الادب العربى بعد

فخرى ابو السعود

بمناسبة ذكرى المولد

للأستاذ على الطنطاوى

احتفل العالم الاسلامى كله أول أمس — بذكرى مولد سيد العالم وخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الاحتفال يعد فرصة سانحة من فرص الدعوة إلى الاسلام ، والسعى فى سبيل الاصلاح ، تفيدنا فائدة كبيرة إذا نحن عرفنا طريق الاستفادة منها ولم نجعلها قاصرة على إقامة السرادقات الفخمة ، وإيقاد آلاف من المصابيح الكهربائية ، وإطلاق البارود فى الجو ، والاجتماع على ترتيل قصة المولد والتطريب فيها ، وتلاوة الأغانى والأناشيد ، وأكل الحلويات والأنقال ، والتسلى واللهو والطرب ، وإضاعة الأموال بلا حساب

وطريق الاستفادة منها ، أن يبحث الخاصة من رجال وأولياء الأمر ، فى مجالسهم واحتفالاتهم أدواء المسلمين اليوم ، ويصوروها ويفتشوا عن أدويتها ، وأن يضعوا خططاً جديدة للدعوة ، ومناهج للعمل المثمر ، وأن تشرح السيرة النبوية للعامة فى مجامعهم واحتفالاتهم ، وينبهوا إلى مواطن العبرة فيها ، لأن ذلك هو المراد من الاحتفال بالمولد ، لا سرد الأخبار الموضوعة . والعجائب والخرافات ، واللهو والطرب ، وأن تبين لهم مزايا الاسلام وفوائده ، وأصوله ومبادئه ، لأن الكثيرين من المسلمين لا يعرفون من الاسلام إلا اسمه ، ولا يفرقون بين طبيعة الاسلام وطبائع الأديان الأخرى ، ولا يعلمون أن الأديان كلها أديان فقط ، بمعنى أنها جاءت بعقائد وعبادات وأخلاق ، أما الاسلام فهو دين ، وهو تشريع ، وهو سياسة ، وهو أدب . وانظر فى أى مسألة من مسائل الفكر الكبرى ، أو أى أمر من أمور الحياة ، تر للإسلام رأيا فيه وحكما ، فالتشريع الاسلامى أغزر أو من أغزر وأصفى المنابع التشريعية فى العالم . والاسلام قد أقر الحرية الفكرية ، ووضع أصول البحث العلمي ، بما أمر به